الموسوعية والموسوعات في الحضارة الإسلامية

- ظاهرة العلماء الموسوعيين
- فن التأليف الموسوعي

رسالة الموسوعات في الحضارة الإسلامية هي الحفاظ على العقل الموسوعي الذي يسترشد بالقسمة الموسوعية التي أرسى قواعدها القرآن الكريم في العقل الفردي والجمعي والحضاري لأمة الإسلام.

الموسوعية والموسوعات في الحضارة الإسلامية

من بين دفتي القرآن الكريم ومن سوره وآياته، ولدت الأمة الإسلامية وكل مقوماتها؛ من العقيدة إلى الشريعة إلى منظومة القيم والأخلاق.

ولأن القرآن الكريم منهاج شامل وكامل للدنيا والآخرة، للدين والدولة، للفرد والطبقة والأمة، للذات والآخر: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢-١٦٣). كان هذا القرآن الكريم، المنهاج الذي يكوّن العقل الموسوعي الذي لا يسجن طاقاته في التخصص والضيق والجزئي والمحدود.. يكوّن العقل الذي ينظر كيف بدأ الخلق، وكيف كانت المسيرة الإنسانية للأمم والشعوب والحضارات والنبوات والرسالات عبر التاريخ، ليعتبر بالسنن الإلهية التي حكمت الرحلة البشرية عبر هذه القرون.

ثم هو العقل الذي لا يعيش في الماضي مهاجرًا إلى قرونه وتجاربه حبيسًا فيها، وإنما هو العقل الذي يستلهم هذا الماضي ومواريثه ليفقه الواقع الحي والمتجدد الذي يعيش فيه، ومن ثم يمد بصره وبصيرته إلى المستقبل القريب والبعيد. ليس -فقط- المستقبل في عالم الشهادة بهذه

الحياة، وإنما فيما وراء وما بعد هذه الحياة، أي إنه العقل الجامع -في موسوعيته- للبدء والمسيرة والمصير...

ولهذه الخصيصة الموسوعية للمنهاج القرآني، كانت آيات الوحي الإلهي التي نزل بها الروح الأمين -جبريل عليه السلام- على قلب الصادق الأمين -محمد بن عبد الله- عليه الصلاة والسلام، بمثابة "النواة" أو "الحجر" الذي أُلقي به في "البحيرة" لتنداح من حوله الدوائر المتعددة والشاملة لكل مناحي الحياة ومقوماتها. لقد انداحت من حول هذه "النواة" كل مقومات الدين والدولة والثقافة والمدنية والحضارة... وكل دوائر النور التي أضاءت حياة الإنسان الذي آمن بهذا القرآن الكريم.

كما أحيا هذا الإنسان الأرض الموات، فازدانت حياته "بالمدنية" التي هي عمران الواقع المادي، كذلك تهذبت ملكاته الروحية "بالثقافة" التي هي عمران النفس الإنسانية. ومن "الثقافة" و"المدنية" ومن تراكُمِ معارفِهما بمرور التاريخ، تكونت الحضارة الإسلامية التي هي إبداع مدني أثمره هذا الوحي وهذا الدين.

ظاهرة العلماء الموسوعيين

وبسبب من هذا المنهاج الموسوعي الذي يثمره الفقه والتدبر لهذا القرآن الكريم، تميزت الحياة العلمية والإبداع الفكري في الحضارة الإسلامية "بظاهرة العلماء الموسوعيين" الذين جمعوا -في إبداعاتهم- بين "عمق التخصص" وبين "شمولية الموسوعية"... فلم تقع عقولهم فريسة "لسجن التخصص" كما أنها لم تصب بالسطحية التي تفهم خطأ من "الموسوعية".

وإذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة على الإبداعات الموسوعية التي أثمرتها عقول علماء هذه الأمة، الذين مثّل الواحد منهم موسوعة شاملة لمختلف العلوم والفنون، والذين برئت عقولهم وإبداعاتهم من الفصام النكد بين "عمق التخصص" وبين "الموسوعية".. فتميزت موسوعيتهم بالشمول لميادين الإبداع في علوم المادة وعلوم الروح، في علوم الدين وعلوم الدنيا، في عالم الشهادة وفي معارف الغيب، في المنقول والمعقول، في الفلسفة العقلية ومنظومة القيم والأخلاق.

إذا أردنا أن نضرب بعض الأمثال على هذه القسمة الموسوعية في تراثنا الفكري والعلمي، فسنجد على سبيل المثال:

• حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م) الذي مثل "ظاهرة فكرية" لعلوم عصره؛ من الفقه إلى الأصول إلى الفلسفة إلى التصوف وعلم القلوب والسلوك.

• وأبو الوليد بن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) الذي كان الناس يفزعون إلى فتواه في الفقه كما يفزعون إلى فتواه في الطب، والشارح الأكبر لأرسطو والمتفرد بالكتابة في فلسفة اختلاف الفقهاء وفي علم الكلام، والجامع بين علوم المعقول والمنقول، والمقاصد والوسائل... حتى لقد كان فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء.

• ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م) الذي كان "الشيخ الرئيس" في الشرعي والمدني، في الإلهيات والطبيعيات، في التصوف وفي النبات والحيوان.

• والبغدادي -أبو منصور عبد القاهر- (١٠٣٧م) الذي جمع بين أصول الدين والهندسة والحساب...

• والخيام -أبو الفتوح، عمر بن إبراهيم- (١١٢١م) الذي كان موسوعة

في اللغة والشعر والفلسفة والتصوف والفقه والتاريخ والفلك والهندسة والرياضيات...

• والفخر الرازي (١١٥٠-١٢١٠م) الذي جمع بين علوم الدين والدنيا؛ من التفسير إلى الفلسفة إلى الكلام إلى الأصول... حتى قال مؤرخوه: "إنه كان أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل"... وغيرهم آلاف من العلماء والموسوعيين.

فن التأليف الموسوعي

ولم تقف "القسمة الموسوعية" في الحضارة الإسلامية عند إبداع "العقل والموسوعي"، وإنما أثمرت أيضًا "فن التأليف الموسوعي" الذي اشتهر به العديد من العلماء الذين توفروا على تأليف وتصنيف الموسوعات التي تجمع شتات العلوم والمعارف والفنون والآداب، لتزكي وتنمي "القسمة الموسوعية" لدى طلاب العلم والباحثين والقراء والمتأدبين.

فعرفت حضارتنا موسوعات "الطبقات" التي أرخت لحياة العلماء الأعلام وإبداعاتهم في مختلف مناحي العلوم والفنون، وموسوعات "الخطط" التي أرخت المواقع والمكان والمؤسسات والثروات والتجارات والخانات والرحلات وأنماط المعاش والعادات، وموسوعات "كشافات المصطلحات" في مختلف ميادين المعارف والعلوم والفنون، وموسوعات "اللغة" وعلومها، والموسوعات التي توفرت على "علوم القرآن الكريم" و"علوم السنة النبوية الشريفة"...

فمن "طبقات" ابن سعد (٧٨٤-٨٤٥م) إلى "الفهرست" لابن النديم (١٠٠٠م) إلى "العين" للخليل بن أحمد (٧١٨-٧٨٦م) إلى "إحياء علوم

الدين" للغزالي (١٠٥٨-١١١١م) إلى "العقد الفريد" لابن عبد ربه (٨٦٠-٩٤٠م) إلى "الأغاني" لأبي فرج الأصبهاني (٨٩٧-٩٦٧م) إلى "التعريفات" للجرجاني (١٣٤٠-١٤١٣م) إلى "لسان العرب" لابن منظور (١٢٣٢-١٣١١م) إلى "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري (١٢٧٨-١٣٣٣م) إلى "معجم البلدان" و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي (١١٨٠-١٢٢٩م) إلى "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير (١١٦٠-١٢٢٣م) إلى "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البر (٩٧٨-١٠٧١م)... آلاف وآلاف الموسوعات التي أصبحت "فنًا" من فنون التأليف في حضارة الإسلام، والتي نهضت برسالة "خَلْق العقلية الموسوعية" لدى طلاب العلم والقراء، وذلك حتى لا يصبح العقل سجينًا للتخصص المحدود.

فبعد عصر التدوين مر العلم والفكر -في حضارتنا- بطور "التخصص" الذي انقسم فيه العلم الواحد إلى عدة علوم. ولقد كانت هذه الموسوعات هي السبيل إلى جمع أطراف المعارف في هذه العلوم، لمساعدة العقل المسلم على أن يظل متكاملاً، وأن يتمكن طالب العلم الإسلامي من تكوين "العين للأمة" التي تنقذ العقل من النظرة الأحادية التي تقيم فصامًا نكدًا بين صاحبها وبين مختلف عوالم العلوم والمعارف والفنون والآداب.

وبعد نكبة الغزوة المغولية (١٢٥٨م) التي دمرت الكثير من ذخائر المكتبات الإسلامية في الحواضر التي اجتاحها المغول، والتي أحدثت "شرخا" في "الذاكرة الإسلامية"، قامت الموسوعات -في العصر الأيوبي والمملوكي- بجمع شتات الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية والفنون والآداب، فحفظت للذاكرة الإسلامية التواصل مع المنابع والأصول والجذور.

تلك كانت رسالة الموسوعات في الحضارة الإسلامية: الحفاظ على

العقل الموسوعي الذي يسترشد بالقسمة الموسوعية التي أرسى قواعدها القرآن الكريم في العقل الفردي والجمعي والحضاري لأمة الإسلام.

الاجتهاد الإسلامي

- دواعي الاجتهاد
- أدلة مشروعية الاجتهاد
- حكم الاجتهاد ومراتبه
- الاجتهاد الجماعي

مع تعقُّد شؤون الواقع الجديد، وتشعُّب علوم الشريعة والحضارة إلى تخصصات كثيرة ودقيقة، كانت الحاجة إلى "الاجتهاد الجماعي" الشكل الأنسب للعصر الذي نعيش فيه.

الاجتهاد الإسلامي

الاجتهاد -كالجهاد- من جَهَدَ، وهو لغة: استفراغ الوُسْع في تحصيل أمر مُستلزِم للكلفة والمشقة. واستفراغ الوُسْع معناه: بذل تمام الطاقة، بحيث يحس المجتهد من نفسه العجز عن المزيد عليه. وفي اصطلاح الأصوليين: استفراغ الفقيه الوُسع لتحصيل ظن بحكم شرعي. فالمجتهد هو الذي تكون لديه ملكة الاقتدار على استنباط الفروع من الأصول.

والأسباب التي تُمكن المجتهد من الاجتهاد في العلوم الشرعية -وكذلك في العلوم العقلية- كثيرة، تفاوت تعدادها لدى بعض العلماء. لكن يجمعها سببان أو شرطان:

أ- معرفة الأصول كتابًا وسنة.

بـ- معرفة الاستنباط من الأصول بالقياس.

هذا في الشرعيات، والحلال والحرام. أما في العقليات، فالسببان هما:

أ- معرفة الأوائل العقلية.

بـ- ومعرفة وجه الاستنباط منها.

أما تفصيل شروط المجتهد، كما حددها علماء الأصول فهي:

١- التمكن من اللغة العربية إلى الحد الذي تتحصل للمجتهد القدرة على إدراك أسرار البيان القرآني المعجز ومقاصد السنة النبوية الشريفة.

٢- الفهم والتدبر لآيات الأحكام في القرآن الكريم والتي تبلغ الخمسمائة آية.

٣- رسوخ القدم في السنة النبوية وعلومها رواية ودراية سندًا ومتنًا، وعلى الأخص ما جاء في صحاحها ومجاميعها ومسانيدها من أحاديث الأحكام التي قدَّرها البعض بثلاثة آلاف حديث.

٤- المعرفة المحيطة بالناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق المقيد في آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية الشريفة.

٥- المعرفة بأصول الفقه واجتهادات أئمته فيه ومسائل الإجماع والقياس فيه.

٦- الحذق لروح التشريع الإسلامي ومقاصد الشريعة الإسلامية حتى تتحصل للمجتهد ملكة الجمع والمقارنة بين النصوص المتعددة -والتي قد تبدو أحيانًا مختلفة أو متناقضة- في المسألة الواحدة، والخروج منها بالحكم المحقق للمقاصد وروح التشريع.

ولقد تبدو هذه الشروط عزيزة الوجود والتحقق والاجتماع في العالم الفرد، في عصر التخصصات الدقيقة والجزئية -للعلوم- الذي نعيش فيه. لكنّ تطوّر أدوات ووسائل الطباعة والتوثيق والفهرسة والتخزين للمعلومات قد يسهل أمور الاجتهاد وييسر اجتماع شروطه لعماء اليوم أكثر مما كان ذلك ميسورًا قبل هذا التطور في سبل البحث العلمي ووسائله.

دواعي الاجتهاد

ودواعي الاجتهاد في الشريعة الإسلامية التي جعلته ضرورة من ضروراتها وقانونًا وسنة من قوانينها وسننها كثيرة، منها:

أ- خلود الشريعة الإسلامية لختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، الأمر الذي يقتضي الاجتهاد المحقِّق لصلاحها لمختلف العصور. فغيبة الاجتهاد يقف بها عند تلبية احتياجات عصور دون الأخرى، الأمر الذي يهددها بالجمود الذي يعجزها عن تلبية حاجات العصور المتتالية، والتي هي بحكم سنة التطور متغيرة ومتجددة.

ب- عموم الرسالة المحمدية -ومن ثم شريعتها- للعالمين. الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لتلبية احتياجات البيئات المختلفة والعادات المتغايرة والأعراف المتمايزة، للبلاد والأمم والأجناس المختلفة.

جـ- طروء البدع -بالزيادة والنقصان- على أحكام الشريعة، بمرور الأزمان، وخاصة في عصور الضعف والجمود. الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لجلاء الوجه الحقيقي لأحكام الشريعة ومقاصدها.

د- تناهي نصوص الأحكام -في الكتاب والسنة- ولانهائيةُ المشكلات الحادثة للناس عبر الزمان والمكان، الأمر الذي يستدعي الاجتهاد لاستنباط الفروع الجديدة من الأصول الثابتة، لتستظل بهذه الفروع الجديدة مساحات من الوقائع والمشكلات لم تكن موجودة من قبل.

هـ- التطور، الذي هو سنة من سنن الله في خلقه، في الإنسان والحيوان والنبات والجماد والأفكار، والذي يستدعي الاجتهاد لينمو القانون الإسلامي فيواكب ثمرات التطور ويلبي حاجاته في مختلف ميادين الحياة.

أدلة مشروعية الاجتهاد

أما الأدلة على شرعية الاجتهاد من الكتاب والسنة فإنها كثيرة:

فآيات القرآن التي تحدثت عن فعل العقل والتعقل هي تسع وأربعون

آية. وآياته التي تحدثت عن القلب -ومن وظائفه التفكير والتعقل- تبلغ مائة واثنين وثلاثين آية. ولقد ورد الحديث في القرآن عن "اللب" بمعنى العقل، لأنه جوهر الإنسان وحقيقته في ستة عشر موضعًا. وجاء الحديث فيه عن "النُّهى" (بمعنى العقل) في آيتين. أما التفكر، فلقد جاء الحديث عنه بالقرآن في ثمانية عشر موضعًا. وجاء الحديث فيه عن "الفقه" في عشرين موضعًا. وجاء حديثه عن "التدبر" في أربع آيات، وعن "الاعتبار" في سبع آيات. وعن "الحكمة" في تسع عشرة آية. الأمر الذي يجعل رصيد الاجتهاد في القرآن الكريم رصيدًا ضخمًا وغنيًّا. ففيما يقرب من الثلثمائة آية يأتي الحديث الذي يحث على الاجتهاد ويزكيه.

أما السنة النبوية، فإن مأثوراتها التي تزكي الاجتهاد وتحض عليه -صراحة أو ضمنا- هي الأخرى كثيرة حتى لتستعصي على الحصر الدقيق.

فالرسول ﷺ يدعو إلى الاجتهاد في فهم آيات القرآن اجتهادًا يصل بنا إلى ما وراء ظواهر النصوص: "أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين" و"من أراد العلم فليثور القرآن" (رواه الطبراني). وإذا دعا لحبر الأمة (ابن عباس) قال: "اللهم فقهه في الدين" (رواه مسلم)، لأن "من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين" (متفق عليه).

وهو عندما يسأل مبعوثه وقاضيه إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه:

- "بم تقضي؟"

فيجيبه: بكتاب الله. يعاود سؤاله:

- "فإن لم تجد في كتاب الله؟"

فيجيبه: أقضي بما قضى به رسول الله. فيعاود سؤاله:

- "فإن لم تجد فيما قضى به رسول الله؟"

فيجيبه: أجتهد برأيي.. وعند ذلك يقول الرسول ﷺ:

- "الحمد لله الذي وفق رسول رسوله" (رواه أبو داود والترمذي).

بل إنه ليشجع على الاجتهاد حتى ليحدثنا عن أن المجتهد مأجور على مطلق الاجتهاد، حتى ولو لم يصادف اجتهاده الصواب "من اجتهد برأيه فأصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد" (رواه البخاري).

حكم الاجتهاد ومراتبه

والاجتهاد قد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية، وقد يكون مندوبًا، وذلك وفق مقام الاجتهاد والحاجة إليه والحكم الذي يستنبطه المجتهد بالاجتهاد، وتعلُّق هذا الحكم بذات المجتهد أو بالآخرين.

وميدانه ما ليس معلومًا من الدين بالضرورة، مما اتفقت عليه الأمة من الشرع الجلي الذي ثبت بالنصوص قطعية الدلالة والثبوت. أما مراتب المجتهدين فإنها ثلاثة:

الأولى: رتبة المجتهد المطلق؛ وهو الذي "يستنبط" الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة.

الثانية: رتبة مجتهد المذهب؛ وهو من "يستنبط" الأحكام من "قواعد" إمام مذهبه.

الثالثة: رتبة مجتهد الفتوى؛ وهو المقتدر على "الترجيح" في "أقوال" إمام مذهبه.

والذي جرى عليه الرأي في مبحث الاجتهاد -في الحضارة الإسلامية- هو عدم خلو العصر -كل عصر- ممن ينهض بأداء فريضة الاجتهاد. وللإمام جلال الدين السيوطي كتاب جعل عنوانه: "الرد على من أخلد

إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض" قال في مقدمته: "إن الناس قد غلب عليهم الجهل وعمهم، وأعماهم حب العناد وأصمهم، واستعظموا دعوى الاجتهاد، وعدّوه منكرا بين العباد، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات في كل عصر، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة في كل قطر".

الاجتهاد الجماعي

لكن الذي حدث للاجتهاد عبر مسيرتنا الحضارية، أن ميادين من إبداع العقل الإسلامي في الفكر الإسلامي قد أصابها الجدب، فأصيبت ثمراتها بالذبول. فمنذ الانقلاب الأموي على فلسفة الشورى ضمرت إبداعات الأمة واجتهاداتها في الفقه الدستوري والفكر السياسي الذي يحدد أطر وضوابط علاقة الحاكم بالمحكوم؛ على حين نمت وازدهرت إبداعات الفكر واجتهاداته في الميادين الأخرى.

فلما طال الأمد بالخطر الخارجي تتاريًّا وصلِيبيًّا، وطال الأمر بدول العسكر المماليك، التي مثلت فروسية العصر اللازمة للدفاع عن وجود الأمة والحضارة إزاء هذا الخطر الخارجي، وجلب المماليك شريعة مواطنهم الأصلية "ياسة" جنكيز خان فجعلوها قانون العسكر (أي الطبقة الحاكمة) والدواوين السلطانية (أي دوائر الدولة) تراجعت مكانة "فقه المعاملات" الإسلامي، فذبل، ثم توقف الإبداع والاجتهاد فيه، وهذا هو الذي أدى إلى ما يسميه البعض إغلاق باب الاجتهاد، حتى جاء عصرنا الحديث ولدينا ثراء وغنى في "فقه العبادات" والشعائر الدينية، يصاحبه فقر شديد في "فقه المعاملات" و"الفكر السياسي" اللازم لمواكبة الواقع

الجديد والمستحدثات من الأمور.

الأمر الذي يبرز حاجتنا الماسة إلى تنشيط الاجتهاد في "فقه الواقع" السياسي والاقتصادي والاجتماعي ليتسنى لأصول شريعتنا الفروع التي تظلل وتحكم وتصبغ بالإسلام هذا الواقع الجديد.

وربما مع تعقُّد شؤون الواقع الجديد، وتشعُّب علوم الشريعة والحضارة إلى تخصصات كثيرة ودقيقة، كانت الحاجة إلى "الاجتهاد الجماعي" الشكل الأنسب للعصر الذي نعيش فيه.

المنهاج النبوي
في المداعبة والمزاح

- تحديد المصطلحات والمفاهيم
- مع مصطلح الوسطية
- الرسول القدوة
- حول مفهوم الملحة والطرفة والنكتة والمزح
- الإنسان الكامل
- صور من مزاحه ﷺ

إن حياة الرسول ﷺ وأسوته وقدوته لم تخلُ من المُلح والطرائف والنكات التي نهضت بمهام الترويح عن النفس وتجديد ملكات وطاقات القلوب، والإعانة على جد الحياة وصعابها مع التزام الحق والصدق والعدل، أي الوسط والوسطية المتميزة عن الغلو إفراطًا كان أو تفريطًا.

المنهاج النبوي
في المداعبة والمزاح

الإسلام دين الوسطية، ولقد شاء الله ﷻ أن تكون هذه الوسطية "جَعْلاً إلهيًّا"، وليس مجرد خيار من خيارات المؤمنين بالإسلام، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). ونحن نلاحظ أن هذه الآية الكريمة قد جعلت الوسطية علة وسببًا يترتب عليه اتخاذ الأمة الإسلامية موقع "الشهود" على العالمين، بما في هذا العالمين من أمم وشعوب وملل ورسالات وثقافات وحضارات.. وذلك التعليل وثيق الصلة بمعنى "الوسطية" ومعنى "الشهود".. فالوسط -كما علمنا رسول الله ﷺ- هو العدل. والعدل هو الشرط المؤهل للشهادة والشهود على العالمين. ولأن هذه الأمة الخاتمة قد آمنت بكل النبوات والرسالات والكتب السماوية، كانت وحدها المؤهلة عدالتُها بالشهادة على العالمين، بما في ذلك الشهادة على تبليغ كل الرسل رسالاتهم إلى أمم هذه الرسالات.

تحديد المصطلحات والمفاهيم

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أنه "لا مُشاحَّة في الألفاظ

والمصطلحات"، فإن انتفاء هذه "المشاحة" واقف فقط عند استخدام هذه الألفاظ وهذه المصطلحات، أما المضامين والمفاهيم المقصودة من وراء استخدام هذه المصطلحات فإن فيها الكثير والكثير جدًّا من المشاحات، وخاصة عندما تتعدد -وأحيانًا تتناقض- المفاهيم المرادة من وراء المصطلح الواحد؛ بسبب تعدد الثقافات والحضارات والفلسفات والمواريث.

فمصطلح "الدين"، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب، لكن مفهومه ومضمونه عند أهل "الديانات الوضعية" غيُره عند أهل الديانات السماوية. ومفهومه ومضمونه في الفلسفات المادية يعني: الإفراز الخرافي والأسطوري للعقل الإنساني في مرحلة الطفولة من تطور الإنسان؛ بينما يعني "الدِّين" في النسق الرباني: الوضع الإلهي الذي نزل به الوحي الأمين على الأنبياء والمرسلين، لسَوْق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الهداية والخير في الدينا والآخرة.

ومصطلح "السياسة"، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب والثقافات، لكنه يعني في الحضارة الوضعية الغربية: فن الممكن من الواقع تحقيقًا للقوة، وذلك بصرف النظر عن علاقة هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق؛ بينما يضبط النسق الإسلامي -في فلسفة السياسة- هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق. فالسياسة -في هذا النسق- هي "التدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد". وفارق جوهري بين هذا المفهوم للسياسة، وبين مفهومها وفلسفتها الغربية عند "ميكيافيللي"، ذلك الذي شاع في فلسفة السياسة بالحضارة الوضعية الغربية ولا يزال شائعا وحاكما حتى هذه اللحظات.

"والإقطاع"، مصطلح تردده كل الأمم والشعوب، لكنه يعني في الحضارة

الغربية: ملكية الأرض ومن وما عليها؛ بينما هو في النسق الإسلامي: تمليك منفعة، لإحياء الأرض الموات، واستثمارها والانتفاع بها، وفق الضوابط التي وضعها -في الشريعة- مالك الرقبة في كل الأموال والثروات ﷻ.

مع مصطلح الوسطية

وكذلك الحال مع مصطلح "الوسطية"، الذي يعني -في "الفكر السُّوقي"- التَّميُّع وانعدام التحديد، وافتقار الموقف "الوسطي" إلى اللون والطعم والرائحة! والذي يعني في الفكر الأرسطي وفلسفة "أرسطو": الفضيلة بين رذيلتين، أي الموقف الثالث الذي هو بمثابة نقطة رياضية ثابتة بين قطبين، مع المغايرة الكاملة بين هذا الموقف الثالث (الوسطي) وبين هذين القطبين. ولكن المفهوم الإسلامي للوسطية ليس كذلك، فهي وسطية جامعة، تمثل موقفًا ثالثًا بين القطبين المتقابلين والمتناقضين، لكنها لا تغاير هذين القطبين مغايرة تامة، وإنما هي تَجمع منهما عناصرَ الحق والعدل لتكوِّن منها وبها هذا الموقف الوسطي الجديد. فهي في حقيقتها رفض للغلو الذي ينحاز إلى قطب واحد من هذين القطبين (غلو الإفراط أو غلو التفريط).

فوسطية الإسلام الرافضة للغلو المادي والغلو الروحي هي وسطية لا تغير المادة والمادية ولا الروح والروحانية كلية، وإنما هي الوسطية الجامعة لعناصر الحق والعدل من المادية والروحانية جميعًا، على النحو الذي يوازن توازن العدل بينهما. ولذلك فإنها (هذه الوسطية الإسلامية الجامعة) تصوغ الإنسان الوسط: راهب الليل وفارس النهار، الجامع بين الفردية والجماعية، بين الدنيا والآخرة، بين التبتل للخالق والاستمتاع

بطيبات وجماليات الحياة التي خلقها الله وسخرها لهذا الإنسان.

الرسول القدوة

ولأن النموذج والقدوة والأسوة تنهض بالدور الأول في ميدان التربية والتزكية والصياغة للإنسان والمجتمع والثقافة والحضارة، فلقد شاء الله ﷻ أن تكون القدوة والأسوة للأمة الوسط ذلك النبي الأمي الذي جسدت حياته أكمل نموذج لوسطية إسلامية جامعة يمكن أن يتحقق في دنيا الناس. لقد صنعه الله على عينه ليكون نموذج هذه الوسطية الإسلامية وقدوتها وأسوتها. فهو بشَر يوحَى إليه، بشر تجوز عليه كل عوارض البشرية، يولد ويمرض ويألم ويموت. وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. ولا يأتي من الخوارق إلا ما آتاه الله. وفي ذات الوقت -ولأنه يوحى إليه-فلقد مثَّل رباط وارتباط الأرض بالسماء، وحلقة الوصل بين عالم الشهادة وعالم الغيب. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: "فإن روحه ﷺ ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية. فهو يشرف على الغيب بإذن الله، ويعلم ما سيكون من شأن الناس فيه، وهو في مرتبته العُلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهو في الدنيا كأنه ليس من أهلها، وهو وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها. يتلقى من أمر الله ويحدّث عن جلاله بما خفى عن العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه. معبرًا عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم. ثم هو بعد ذلك بشر يعتريه ما يعتري سائر أفراد البشر"، مما لا يقدح في مقتضيات رسالته.

لقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه، فكان على خلق عظيم، وجَمعت حياته

وسياساته بين الاجتهاد الإنساني وبين الوحي المسدِّد للاجتهاد، والحاكم فيما لا يستقل به الاجتهاد. هو ﷺ العابد المتبتّل الذي يقف بين يدي مولاه حتى تتورم قدماه. وهو الذي جعل رهبانيته ورهبانية أمته الجهاد في سبيل الله، حتى لقد كان الفارس المقاتل الذي يحتمي به الفرسان إذا اشتد القتال وازداد البأس وحمي الوطيس واحمرت الحدق، فلا يكون أحد أقرب إلى الأعداء منه عليه الصلاة والسلام. ومع ذلك كان أشد حياء من العذراء في خدرها، ولقد جعل الحياء في شريعته شعبة من شعب الإيمان. كان أشجع الناس وأحلم الناس، كانت عبادته مجاهدة وجهادا، وكان جهاده عبادة وتقربًا إلى الله.

وفي قدوته وأسوته جمعت الوسطية بين قوة الصبر والمصابرة وبين ذروة الخشوع والخضوع في الصلاة ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة:٤٥).

وكذلك جمعت قدوته وأسوته بين الرفق الرفيق بالإنسان –مطلق الإنسان– والحيوان والنبات والبيئة –بما في ذلك الجماد– لأنها جميعها حية تسبح بحمد خالقها –حتى وإن لم نفقه تسبيحها–، وبين الغضب الشديد لدين الله وحرمات الله وحدود الله. كما جمعت قدوته وأسوته بين زهد الغَنِيّ في متاع الدنيا وبين عشق الجمال الذي خلقه الله وبثه زينة في هذا الكون الجميل. فكانت وصاياه باختيار الاسم الحسن والاستمتاع باللهو الحلال والاستعاذة بالله –في دعاء السفر– من كآبة المنظر، ودعائه ربه في صلاة الاستسقاء: "اللهم أنزل علينا في أرضنا زينتها" (رواه الطبراني). كما جمعت وسطيته بين تفضيل الحياة مع المساكين –لا الملوك الجبارين والمترفين– وبين الرقة والزينة، حتى لقد جاء في صفاته وشمائله أنه "لم

تكن يد ألين من يده ولا ريح أطيب من ريحه أطيب رائحة من المسك. فكان وجهه يبرق من السرور. وكأن عرقَه اللؤلؤ" (رواه الإمام أحمد). كما جمعت وسطيته بين تبتل العابد عندما يعتكف بالمسجد وبين الزينة حتى أثناء الاعتكاف، فكان يناول رأسه لعائشة رضي الله عنها وهي في حجرتها لترجِّل له شعره، عليه الصلاة والسلام.

وهكذا جسدت القدوة والأسوة النبوية بهذه الوسطية الإسلامية الجامعة نموذج الإنسان الكامل الذي امتاز وتميز عن غلو الإفراط والتفريط.

وهذا النبي الأميّ الذي نهض لتغيير العالم في شؤون الدين والدنيا، وتقدم لتحويل مجرى التاريخ، ومفهوم الثقافة والحضارة، ومعنى إنسانية الإنسان. والذي كابد ما كابد -ثلاثة عشر عامًا في المرحلة المكية- وبنى الدولة وبلور الأمة وقاد من الغزوات والسرايا والبعوث ما زاد على الستين -في تسع سنوات من المرحلة المدنية-، هو الذي جمعت وسطيته بين هذه المجالدة والمكابدة وبين الترويح عن النفس لتجديد ملكات وطاقات هذه النفس؛ كي تستطيع النهوض بتبعات المجالدة والمكابدة والمجاهدة، وكي تستمتع بما خلق الله في هذه الحياة من ألوان الجمال وعوامل المتاع والاستمتاع.

حول مفهوم الملحة والطرفة والنكتة والمزح

وبين يدي هذه الإشارات واللمحات عن هذا الجانب من سيرة المصطفى ﷺ لابد من تحديد المعاني والمفاهيم لمصطلحات "المُلحة" و"الطرفة" و"النُّكتة" و"المزح" في اصطلاح العربية وثقافة الإسلام.

فالمُلْحَةُ: هي القول والفعل الذي فيه ظُرف. وفي أساس البلاغة:

"ومن المجاز: وجه مليح، ووجوه ملاح، وما أملح وجهه وفعله، وما أُمَيْلِحَه، وله حركات مستملَحة. وحدثتهُ بالمُلح. وفلان يتظرف ويتملّح". وفي لسان العرب: "عن ابن عباس ﷺ، قال رسول الله ﷺ: "الصادق يعطى ثلاث خصال: المُلحة، والمهابة، والمحبة". فالمُلحة: هي القول أو الفعل أو الحركات الظريفة التي تُكْسِب الحديث أو الموقف مُلحة وظُرفًا. وهو قصد زائد على الضروري من الأقوال والأفعال. والوسط فيها هو المحمود؛ لأنه بمثابة الملح للطعام؛ وسطه مفيد والإسراف فيه مفسد لأصل الطعام.

والظُّرْفة -وجمعها الظُّرَف- هي المُستحدَث المُعْجِب المُتْحِف، وكل شيء استحدثتَه فأعجبك. فهي القول أو الحركة أو الفعل الظريف الذي يضيف إلى المعنى ما يُعجب ويسر نفوس السامعين والمشاهدين.

والنُّكْتَة -وجمعها نُكت ونِكات- في معناها اللغوي: هي النقطة البيضاء في السواد أو النقطة السوداء في البياض. ومن معانيها: المسألة الدقيقة التي أُخرجت بدقةِ نظر وإمعانِ فكر. وهي في المجاز: المعنى غير المألوف والجملة اللطيفة، تؤثر في النفس انبساطا. ونُكتُ الكلام أسراره ولطائفه.

والمَزْح: هو الدعابة. ونقيض الجد. والمُزَّاح من الناس: هم الخارجون من طبع الثُّقلاء والمتميزون من طبع البُغَضَاء. فالمزاح هو تلوين الكلام أو الحركات بالدعابة التي تُكسبه ظُرْفًا يُخرجه عن صرامة الثقلاء وجفاف البُغَضاء. هذا عن التعريف بمضامين ومفاهيم هذه المصطلحات.

الإنسان الكامل

ولأن رسول الله ﷺ كان النموذج الأعظم للإنسان الكامل الذي تكاملت

في صفاته وشمائله وأفعاله الوسطيةُ الجامعة والتوازن العدل، فإن حياته وأسوته وقدوته لم تخلُ من المُلح والطرائف والنكات التي نهضت بمهام الترويح عن النفس وتجديد ملكات وطاقات القلوب، والإعانة على جد الحياة وصعابها مع التزام الحق والصدق والعدل أي الوسط والوسطية المتميزة عن الغلو إفراطًا كان أو تفريطًا.

إننا نطالع في السنة النبوية: أن رسول الله ﷺ كان يمزح أي يداعب أصحابه رجالاً ونساءً ولكنه لا يقول إلا حقًّا. حتى لقد قال له صحابته ﷺ: يا رسول الله، إنك تداعبنا! فقال: "إني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقًّا" (رواه الترمذي والإمام أحمد). وفي صفاته وشمائله -من حديث علي بن أبي طالب ﷺ-: "كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخُلق، ليّن الجانب" (رواه البيهقي). ومن حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ﷺ: ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ" (رواه الترمذي).

وكان ﷺ يرى اللعب المباح ولا يكرهه. ولقد أفسح لفرقة من الأحباش تلعب وترقص -تَزْفِن- وتغني بمسجد المدينة، وسأل زوجه عائشة رضي الله عنها إن كانت تشتهي أن تشاهدهم وتستمتع بألعابهم ورقصاتهم وأغنياتهم، فوقفت خلفه وخدها على خده (في منظر إنساني رقيق) حتى اكتفت وانصرفت عنهم. وعندما دخل عمر بن الخطاب ﷺ المسجد وهمّ بنهر الأحباش، أوقفه رسول الله ﷺ وشجّع الأحباش على مواصلة اللعب قائلاً: "دونكم بني أرفدة، لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وأني أُرسلت بحنيفية سمحة" (رواه مسلم). ومن حديث جابر بن سمرة ﷺ: أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانًا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم، ولا يزجرهم إلا عن حرام (رواه مسلم). ومن

حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: ولربما ضحك ﷺ حتى تبدو نواجذه (متفق عليه). ومن حديث كعب بن مالك ﷺ: كان ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر (متفق عليه). ومن حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه (رواه ابن أبي شيبة).

ولقد روت عائشة رضي الله عنها فقالت: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة، فصنعتُ حريرة (عصيدة، تصنع من الدقيق واللبن والدسم) وجئت به، فقلت لسودة: "كلي". فقالت: "لا أُحب". فقلتُ: "والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك". فقالت: "ما أنا بذائقته". فأخذتُ بيدي من الصحفة شيئا منه فلطَّختُ به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض رسول الله ركبتيه لتستقيد مني، فتناولتْ من الصحفة شيئًا، فمسحتْ به وجهي، وجعل رسول الله يضحك" (رواه أبو يعلى).

وعن عائشة رضي الله عنها: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلما حملتُ اللحم سابقني فسبقني، وقال "هذه بتلك" (رواه أبو داود). وعن أبي هريرة ﷺ: أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلاً دميمًا قبيحًا، فلما بايعه النبي ﷺ قال: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء -وكانت عائشة حاضرة، قبل أن تنزل آية الحجاب- أفلا أنزل لك -يا رسول الله- عن إحداهما فتتزوجها؟ فقالت عائشة: أهي أحسن أم أنت؟!. فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم. فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه -لأنه كان دميمًا- (رواه الدارقطني).

صور من مزاحه ﷺ

عن الحسن ﷺ: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فسألته أن يدعو الله لها بالجنة، فقال: "لا يدخل الجنة عجوز". فبكت، فقال: "إنك لست بعجوز

يومئذ"، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾(الواقعة:٣٥-٣٧)" (رواه الترمذي).

وعن زيد بن أسلم ﷺ قال: إن امرأة يقال لها أم أيمن، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك. فقال لها: "من هو؟ أهو الذي في عينه بياض؟" قالت: والله ما بعينه بياض. فقال: "بلى، إن بعينه بياضًا". قالت: لا، والله. فقال: "ما من أحد إلا وبعينه بياض" (ذكره الزبير بن بكار). وعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً استحمل رسول الله ﷺ فقال: "إني حاملك على ولد الناقة". فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة فقال رسول الله ﷺ: "وهل تلد الإبل إلا النوق" (رواه الترمذي). ومن حديث أنس بن مالك ﷺ: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير، وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول: "يا أبا عمير، ما فعل النُّغَيْز؟"، -والنُّغَيْز: فرخ العصفور، كان يلعب به الغلام- (متفق عليه).

ومن رواية زيد بن أسلم ﷺ، عن خوات بن جبير الأنصاري، أن خوات كان جالسًا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال: "يا أبا عبد الله، ما لك مع النسوة؟!". فقال: يفتلن ضفيرًا لجمل لي شرود. قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ثم عاد فقال: "يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشَّرَّاد بعد؟!" قال: فسكتُّ واستحييتُ. وكنتُ بعد ذلك أَتَفَرَّرُ منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمتُ المدينة، فرآني في المسجد يومًا أصلي، فجلس إليّ فطوَّلتُ، فقال: "لا تُطَوِّل، فإني أنتظرك".. فلما سلَّمتُ قال: "يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشِّراك بعد؟!". فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت. فقال: "الله أكبر، ألله أكبر، اللهم اهد أبا عبد الله". قال -الراوي- فحسن إسلامه وهداه الله" (رواه الطبراني).

وروي أن نعيمان الأنصاري ﷺ كان رجلاً مزَّاحًا، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طُرفة إلا اشترى منها، ثم أتى بها إلى النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك، وأهديته لك. فإذا جاء صاحبها يتقاضاه الثمن، جاء له إلى النبي، وقال: يا رسول الله، أعطه ثمن متاعه. فيقول له الرسول ﷺ: "ألم تهده لنا؟!". فيقول: يا رسول الله، إنه لم يكن عندي ثمنه، وأحببت أن تأكل منه. فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه" (ذكره الزبير بن بكار وابن عبد البر). وعن أبي هريرة ﷺ أن الأقرع بن حابس ﷺ أبصر رسول الله ﷺ يلاعب ويداعب الحسن بن علي رضي الله عنهما فيريه لسانه ويقبله، فكأنما استغرب الأقرع بن حابس ذلك من رسول الله فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ واحدًا منهن، فقال ﷺ: "من لا يرحم لا يُرحم" (رواه مسلم).

تلك نماذج وإشارات من سيرة المصطفى ﷺ وصفاته وشمائله، ومن سنته القولية والفعلية مع أهله، ومع صحابته -من الرجال والنساء- شاهدة على البعد الأصيل في المنهاج النبوي، والذي يجهله أو يتجاهله الكثيرون، وذلك عندما يحسبون الإسلام خشونة وتجهمًا، وعندما يريدون من النموذج الإسلامي ومن رجالات العلم الديني أن يكونوا نماذج للصرامة والتخويف، غافلين -أو متغافلين- عن الصورة القرآنية لنموذج القدوة والأسوة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩)، بل وحتى مع الأعداء، أمر الله ﷻ صاحب الخلق العظيم برفق التدافع مع هؤلاء الأعداء -ناهيًا عن عنف الصراع- لأن هذا المنهاج هو السبيل لتأليف القلوب وإحداث التحولات في هذه القلوب ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾(المؤمنون:٩٦)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً

مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٣-٣٤).

لقد كان ﷺ نموذجًا للإنسان الكامل، العابد المتبتل، والفارس المقاتل، والرحيم الرفيق، والغاضب لحرمات الله وحدود الله، والباشّ المداعب والمفاكه لأهله وأصحابه بالمُلح والطرائف والنكات، وصولاً إلى مفاتيح القلوب، وفقه النفوس والعقول، لتحقيق سعادة الإنسان في هذه الحياة وفيما وراء هذه الحياة.

ففي البشاشة والدعابة والمزاح والملح والطرائف -إذا استقامت وأعانت على تهذيب القلوب وتجديد الملكات وتأليف النفوس- رحمة يكتبها الرحمن في حسنات الرُّحماء.

المصادر:

(١) إسـلامية المعرفة.. مـاذا تعني؟ للدكتور محمد عمـارة، دار المعـارف، القاهرة، ١٩٩٩م.

(٢) الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، دمشق، ١٩٨٢م.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم، بيروت، ١٩٨٣م.

(٤) المصطلحـات الاقتصاديـة في الحضارة الإسـلامية، للدكتور محمد عمارة ، دار الشـروق، القاهرة، ١٩٩٣م.

(٥) معالم المنهج الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٦) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م.

(٧) الإسلام والفنون الجميلة، للدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩١م.

(٨) الغناء والموسيقى حلال أم حرام، للدكتور محمد عمارة، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٩م.

(٩) لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.

(١٠) أساس البلاغة، لمحمود الزمخشري.

(١١) قاموس المنجد، للويس معلوف، بيروت، ١٩٨٦م.

(١٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، طبعة مصورة، دار الشعب القاهرة. ولقد خرج العراقي ما أورده الغزالي من أحاديث في هذا الجانب -جانب الدعابة والملح والطرائف والنكات- من سنة وسيرة رسول الله ﷺ، وكتابه "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" مطبوع بهامش هذه الطبعة من الإحياء.

(١٣) الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، دار الوفاء، مصر، ١٩٩٩م.

ماذا تعني بشرية الرسول؟

- حكمة توكيد القرآن على بشرية الرسول ﷺ
- طبيعة المعجزة القرآنية
- طور الرشد والرسالة الخاتمة

إن "بشرية الرسول" التي تؤكدها "معجزته–القرآن" ليست مجرد "تحصيل حاصل"، وإنما هي "ثورة" على التصورات الجاهلية للأمم السابقة عن "طبيعة الرسل" و"طبيعة المعجزات".

ماذا تعني بشرية الرسول؟

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٣).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:١١٠)

حكمة توكيد القرآن على بشرية الرسول ﷺ

عندما اصطفى الله ﷻ محمد بن عبد الله ﷺ نبيًّا ورسولاً، وعندما صدع محمد ﷺ بأمر ربه، فدعا الناسَ إلى التوحيد وإلى الإيمان به نبيًّا ورسولاً، لم تكن هناك شبهة على "بشرية" محمد بن عبد الله ﷺ.

فهو قد نشأ يتيمًا في الفرع الهاشمي من قبيلة قريش بمكة، وهو قد شب الشباب الطيب المألوف من البشر المستقيمين، ثم هو قد رعى الغنم حينًا من الدهر ومارس التجارة حينًا آخر كما كان يصنع أقرانه من البشر العاديين، فليس في حياته هذه ما كان يثير أية شبهة حول "بشريته" أو يلقي عليها الشكوك أو الظلال.

ومع كل هذا فلقد وجدنا القرآن الكريم تجتهد آياته البينات لتؤكد على "بشرية" محمد ﷺ ولتنفيَ أن يكون إلا "بشرًا رسولاً"، وبشرًا يوحَى إليه من السماء بالنبأ العظيم. فلِمَ كان هذا التأكيد والإلحاح على قضية لم

تكن محل خلاف ولا شبهة ولا جدال؟

لإدراك السر الذي يجيب على هذا التساؤل لا بد من النظر إلى رسالة محمد بن عبد الله ﷺ في سياق ما تقدمها من رسالات نهض بها الرسل الذين سبقوه على درب اتصال السماء بالبشر لهدايتهم إلى الصراط المستقيم؛ وأيضًا في ضوء كون الرسالة المحمدية هي الرسالة الخاتمة لطور النبوة والرسالة، بما يعنيه ذلك من بلوغ الإنسانية مرحلة "الرشد" التي تأهلت بها، لأنْ تُوكَل إلى "عقلها الراشد" تهتدي به -كلما انحرفت أو ضلت- إلى جادة الرسالة الخاتمة، دونما حاجة إلى رسول جديد.

طبيعة المعجزة القرآنية

ولقد كان هذا الطور الجديد الذي ارتقت إليه الإنسانية، طورُ "الرشد"، هو الذي حدّد الطابع الذي تميزت به "معجزة محمد ﷺ" التي تحدى بها قومَه، فجاءت لذلك:

• معجزة عقلية -رغم أنها "نقل" و "وَحي"- فهي لا تدهش العقل ولا تذهله، وإنما هي تنضجه وترشده، وتجعله مناط التكليف، وتتخذه حكَمًا وحاكمًا في فقه مراميها واكتناه أسرار إعجازها، واستخراج البراهين والأحكام مما ضمّت من السور والآيات.

• وهي -لهذا السبب- خالدة خلود الرسالة الخاتمة، لأن تأثيرها دائم الفعل والبرهنة. فهي ليست سفينة نوح عليه السلام، أو ناقة صالح عليه السلام، أو عصا موسى عليه السلام، أو إبراء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص... إلى آخر المعجزات التي "أدهشت العقل"، والتي وقف "إدهاشها" هذا عند حدود "الشهود"!

• ولأنها كانت التعبير عن بلوغ الإنسانية طور "رشدها"، وعن اتساق

"طبيعة إعجازها" مع هذا الطور الجديد، وجدناها تولي اهتمامها بكثير من القضايا التي تدعم من عوامل "رشد الإنسانية"، والتي تُزيل بقايا الشبهات والخرافات والمعتقدات الباقية من المراحل السابقة، عندما كانت الانسانية "خِرافًا ضالّة" تحتاج إلى "الوصاية الدائمة" من قِبل الرسل والأنبياء، ولا تؤمن إلا إذا "اندهش عقلُها". وهي مراحل كانت "عقول" الأكثرية فيها تأبى أن تصدق اتصال السماء بالأرض عن طريق "بشر"، فكانت تنزع إلى "رسل-ملائكة" نزوعَها إلى المعجزات "المدهشة للعقول".

فالذين كذّبوا نوحًا عليه السلام قد أنكروا واستنكروا "جدارة البشر أن يكون رسولاً": ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۞ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾(المؤمنون: ٢٣-٢٤). وكذلك صنع قوم "عاد" مع رسولهم هود عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾(المؤمنون:٣٣-٣٤). أما "ثمود" الذين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، فإنهم مع إنكارهم "جدارة البشر بالرسالة"، قد طلبوا "الآية-المعجزة" التي تدهش العقول: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾(الشعراء:١٤١-١٤٢). لكنهم كذّبوه: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(الشعراء:١٥٣-١٥٤).

فلما جاءتهم "الآية-المعجزة" "المدهشة للعقل" (وهي الناقة) استمروا على تكذيبهم وكفرهم، استنكارًا منهم أن يكون بشرًا رسولاً: ﴿فَقَالُوا

أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾(القمر:٢٤).

وعلى هذا الدرب، دربِ استنكار "جدارة البشر بالرسالة"، سار "أصحاب الأيكة/أهل مَديَن" عندما بعث الله إليهم "شعيبًا" ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٧٨). لكنهم كذبوه مستنكرين جدارته كبشر بالرسالة: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(الشعراء:١٨٥-١٨٦). ثم طلبوا منه كما طلبت "عاد" من "صالح" "الآية-المعجزة" التي "تدهش العقل وتذهله": ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(الشعراء:١٨٧).

ولقد تحدث المسيح عيسى بن مريم ﷺ عن حال بني إسرائيل عندما أرسله الله إليهم، فقال عنهم: إنهم خِراف ضالّة. ولقد جاءهم عيسى ﷺ بالمعجزات التي "تُدهش العقول" من مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص... فلم يؤمنوا به، بل إن الحواريين الذين آمنوا به قد طلبوا هم الآخرين من عيسى "الآية-المعجزة" التي "تدهش العقول": ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:١١٢-١١٣).

ولذلك فعَلَى الرغم من أن دعوة عيسى ﷺ كانت: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾(المائدة:١١٧)، إلا أن قومًا قد ضلّوا فيه، فاستعظموا أن تظهر هذه "الآيات-المعجزات" التي "تدهش العقل" على يد بشر، فاتخذوه وأمه إلهَين من دون الله.

تلك كانت مسيرة الإنسانية مع رسالات السماء... فتعبيرًا عن قصور

هذه الإنسانية في "الرشد العقلاني"، كان استنكار الأكثرية "جدارة البشر" بالنبوة والرسالة والنزوع إلى أن تكون "معجزة" الرسول مما "يدهش العقل" ولا يحتكم إليه.

ولهذا رأينا القرآن الكريم -وهو المعجزة العقلية الخالدة للرسالة الخاتمة- يلحّ مع بقايا هذه الفكرية الجاهلية على بشرية محمد بن عبد الله ﷺ، ليعلن ويؤكد:

- جدارة البشر بالاصطفاء الإلهي نبيًّا ورسولاً،
- واستحالة أن يكون النبي والرسول إلا بشرًا يوحَى إليه،
- وانتهاء الطور الساذج من المسيرة التطورية للإنسان، والذي كانت تناسبه "الآيات-المعجزات" التي "تدهش العقل". فلقد أخلى هذا الطور المكانَ لطور بلغت فيه الإنسانية "رشدها". وإذا كان الإسلام هو الرسالة الخاتمة، وبها ارتفعت الوصاية عن الإنسان، فلا بد وأن يلعب "العقل" دَورًا قائدًا في "رشد" هذا الإنسان وفي "إرشاده"؛ ومن ثم فإن "طبيعة الإعجاز" في معجزة سيدنا محمد ﷺ لا بد وأن تختلف عن طبيعتها في معجزات الرسل السابقين، إنها لن "تدهش العقل"، بل ستتخذه حكَمًا وحاكمًا.

طور الرشد والرسالة الخاتمة

نعم، لقد وقف هذا السبب خلف إلحاح القرآن الكريم على "بشرية" محمد بن عبد الله ﷺ رغم أن هذه "البشرية" لم تكن موضع خلاف ولا موطن شبهات.

فمن العرب من ردد مقولة الأمم السابقة: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾(الأنبياء:٣)، بل وطلبوا ما طلبته تلك الأمم:

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾(الأنبياء:٥). وأمام هذا "المنطق الجاهلي" الذي وقف بأصحابه عند "جاهلية الإنسانية" توالت آيات القرآن تكشف زيف هذا "المنطق"؛ فالتكذيب والعناد والجحود هو سبب الكفر، وليس الافتقار إلى "الآية-المعجزة" "المدهشة للعقل"، وذلك بدليل أن مجيء معجزات الرسل السابقين على هذا النحو لم تحول قومهم من الكفر إلى الإيمان: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء:٦). كما أن الرسل كانوا دائمًا، بشرًا يأتيهم وحي السماء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾(الأنبياء:٧-٨)، وبلوغ الإنسانية "طور الرشد" قد آذن بختام "طور النبوة والرسالة"، الأمر الذي أفسح "للعقل الإنساني" مكانا عاليًا في "ترشيد" الإنسان و"هدايته". ولذلك كله اختلفت "طبيعة الإعجاز" في معجزة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ۞ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾(الإسراء:٨٨-٩٣)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٥).

ولقد كان القرآن الكريم، بهذا المنطق، يقطع الطريق على كل المحاولات التي يمكن أن تظهر من ضعاف العقول، وضعاف الإيمان "بالعقل"، لتشكك في "بشرية" الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:١١٠). فهذا التأكيد على "بشرية" الرسول، وثيق الصلة بالتأكيد على ضرورة أن تبقى عقيدة "التوحيد" في التصور الإسلامي محتفظة بنقائها الشديد.

وفي هذا الضوء وجب ويجب على العقل المسلم أن ينظر إلى كل القصص والأخبار التي نَسبت وتَنسب إلى الرسول ﷺ، الخوارق المادية المدهشة للعقول، والتي هي من جنس معجزات الرسل الذين سبقت رسالاتهم رسالة الإسلام، عندما لم تكن البشرية قد بلغت سن الرشد الذي آذنت به رسالة الإسلام.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول، محذِّرًا أمّته من استعارة سذاجة الأمم التي سبقت، والسير على نهجها في الانحراف عن "الرقي والبساطة" اللتين تميزت بهما عقائد الإسلام: "لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبّ لدخلتموه"؟! (رواه البخاري ومسلم).

إن "بشرية الرسول" التي تؤكدها "معجزته-القرآن" ليست مجرد "تحصيل حاصل"، وإنما هي "ثورة" على التصورات الجاهلية للأمم السابقة، عن "طبيعة الرسل" و "طبيعة المعجزات". كانت كذلك عندما تحدث عنها القرآن الكريم، وهي لا تزال كذلك، "ثورة" على "التصورات" التي طرأت على أفكار ومواريث بعض التيارات الإسلامية التي استنامت للقصص الخرافي ولم تتخذ من العقلانية الإسلامية موقفًا ودّيًا.

النموذج الإسلامي
لتحرير المرأة

- النموذج الوسطي في تحرير المرأة
- ريادات نسائية في فجر الإسلام
- نسبة أعلام النساء في حضارة الإسلام
- رسالة الإسلام رسالة إحيائية

النموذج الوسطي الذي يمثل وسطية الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتي حررهن الإسلامُ منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه.. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلاً.

النموذج الإسلامي لتحرير المرأة

في قضية المرأة وتحريرها لن يختلف أغلب العقلاء على أن المرأة قد حُمّلت تاريخيًّا وحتى عصرنا الراهن وفي كل الحضارات من المظالم والقيود أكثر مما حُمّل الرجال. ومن ثم فإن أغلب العقلاء لن يختلفوا على أن للمرأة "قضية"، وأن تحريرها -وإن ارتبط بتحرير الرجل- إلا أنه يحتاج إلى كثير من التميّز وكثير من الاختصاص وكثير من الاهتمام. لكن الأمر الذي يثير الكثير من الاختلاف -بل والخلاف- على النطاق العالمي، هو "النموذج الأمثل" الذي يحقق التحرير الحقيقي للنساء.

فهناك النموذج الغربي المتطرّف، نموذج الحركات الأنثوية الغربية التي تريد تَمرْكز الأنثى حول ذاتها في عالم خال من الرجال، تثور فيه الأنثى ضد الرجل وضد الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، وضد كل القيم والديانات، وهو نموذج بلغ في تطرفه وشذوذه حد الجنون. وهناك نموذج الجمود والتقليد الذي حمل ويحمل التقاليد الراكدة على الدين، فيُثْبتها ويكرسها ويقدسها حتى لكأن تحرير المرأة في هذا النموذج هو تحريرها من كل دعوات ودعاوى التحرير.

النموذج الوسطي في تحرير المرأة

وهناك النموذج الوسطي المتوازن المعبر عن حقيقة التحرير الإسلامي للمرأة. وهو الذي ينطلق من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم في تحرير المرأة وإنصافها والمساواة بين النساء والرجال الذين سوّى الله ﷻ بينهم عندما خلقهم جميعًا من نفس واحدة، وساوى بينهم جميعًا في حمل أمانة استعمار وعمران هذه الأرض عندما استخلفهم جميعًا في حمل هذه الأمانة. كما ساوى بينهم في الكرامة عندما كرّم كل بني آدم، وفي الأهلية والتكاليف والحساب والجزاء.. مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة لتتم نعمة السعادة الإنسانية بشوق كل طرف إلى الطرف الآخر المتميز عنه -ولو كان ندًّا مماثلاً لما كان "آخر" ولما كان مرغوبًا تهفو إليه القلوب- ولتكون هذه المساواة في الخلق وحمل الأمانة والكرامة والأهلية والتكاليف والحساب والجزاء والاشتراك متضامنين في أداء فرائض العمل الاجتماعي العام... لتكون هذه المساواة هي مساواة تكامل الشقين المتمايزين، لا مساواة الندّين المتماثلين والمتنافرين.

وينطلق هذا النموذج الوسطي من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم الذي جعل الرجل بعضًا من المرأة والمرأة بعضًا من الرجل ﴿لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾(آل عمران:١٩٥). فكل طرف هو لباس للطرف الثاني ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾(البقرة:١٨٧). وقد أفضى بعضهم إلى بعض ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء:٢١). وقامت روابط هذا الميثاق الغليظ -ميثاق الفطرة- الجامع لهم جميعًا على بنود عقد وعهد المودة والرحمة والسكن

والسكينة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(الروم:٢١).

كما ينطلق هذا النموذج الوسطي -في تحرير المرأة وإنصافها- مع بقائها أنثى، تسعد عندما تكون سوية وتفخر وتباهي بأنوثتها، وتنفر وتهرب وتخجل من "الاسترجال"؛ كما يسعد الرجل السوي ويفخر ويباهي برجولته، وينفر من "التخنث" و"الأنوثة"... ينطلق أيضًا من التطبيقات النبوية لنصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم. تلك التطبيقات التي حررت المرأة المسلمة، وأنقذتها من "الوأْد" المادي والمعنوي، وجعلتها طاقة فاعلة في بناء الأسرة والدولة والأمة والحضارة، ومشارِكة في سائر ميادين إقامة الدين والدنيا منذ اللحظات الأولى لإشراق شمس الإسلام.

كما ينطلق هذا النموذج الوسطي أيضًا من الاجتهاد الإسلامي الحديث والمعاصر الذي أولى المرأة ما تستحق وما يجب لها من العناية كطرَف أصيل في المشروع النهضوي المنشود الذي استهدفه تيّار الإحياء والاجتهاد والتجديد، مستندًا إلى القرآن الكريم وإلى تطبيقات التحرير الإسلامي للمرأة، في مواجهة تصورات ونماذج الغلو الإسلامي والغلو العلماني جميعًا.

والنموذج الوسطي الذي يمثل وسطية الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتي حررهن الإسلامُ منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه.. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلاً.

ريادات نسائية في فجر الإسلام

- فخديجة بنت خويلد رضي الله عنها نموذج من نماذج الثمرات

الطيبة لهذا التحرير الإسلامي للمرأة.. به كانت أسبق من كل الرجال إلى الإيمان بالدعوة الإسلامية الجديدة والوليدة.. وبه كانت الداعمة -بالعقل والحكمة والمال وأيضًا بالعواطف المعطاءة- لرسول الإسلام، ودعوته وأمته.. حتى كان عام وفاتها "عام الحزن" والحداد للجماعة المؤمنة كلها.

• وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت نموذجًا من نماذج ثمرات هذا التحرير.. تحمل أمانة سر خطة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة؛ وهي من أخطر التحولات في تاريخ الدعوة والدولة والأمة؛ وتشارك في تنفيذ هذا الحدث الأعظم؛ وتشد أزر زوجها البطل الزبير بن العوام فتهيئ له بيته؛ وتزرع له حقله؛ وترعى فرس جهاده وقتاله؛ وتقاتل معه في بعض الغزوات؛ وتربي ولده عبد الله بن الزبير على البطولة والفداء والاستشهاد؛ وتعارض وتجابه الطغاة، من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي.. ومع كل ذلك تظل أسماء هذه هي الأنثى التي تتزيا بالحشمة الإسلامية والشرقية، فلا تلبس ما يكشف أو يشف، وتحافظ على مشاعر الغيرة المفرطة عند زوجها.

• والشّفاء بنت عبد الله القرشية العدوية رضي الله عنها كانت ثمرة من ثمرات هذا النموذج الإسلامي لتحرير النساء. سبقت إلى الإسلام؛ وبايعت على الدخول فيه وفي أمته ودولته؛ وتميزت بالعقل والرأي والحكمة؛ واشتغلت بتعليم القراءة والكتابة حتى كانت معلمة لحفصة أم المؤمنين؛ وروت أحاديث رسول الله ﷺ.. وكانت تحاوره، وأحيانًا تلومه فيعتذر إليها ﷺ؛ وبلغت -في المشاركة في السلطة والدولة- أن ولاها عمر بن الخطاب "ولاية الحسبة" أي "وزارة" التجارات والأسواق، وأوزانها ومعاملاتها.. تراقب وتحاسب، وتفصل بين التجّار وأهل السوق،

من الرجال والنساء.

• وأم هانئ فاختة بنت أبي طالب رضي الله عنها كانت من ثمرات هذا النموذج في تحرير النساء.. أسلمت عام الفتح (٨هـ)؛ ومع أن زوجها قد فرّ بشركه إلى نجران يوم الفتح، فلقد أجارت -أي أعطت الأمان- لرجلين من قومه كانا مطلوبين للقصاص الإسلامي؛ ووقفت -لذلك- في وجه أخيها علي بن أبي طالب الذي هم بتنفيذ القصاص فيهما فصارعته حماية لمن أجارت حتى لم يستطع منها فكاكًا؛ واستجاب رسول الله ﷺ لعهدها ولإجارتها قائلاً: "قد أجرنا من أجرتِ، وأمّنّا من أَمّنتِ يا أم هانئ.. لكن لا تُغضبي عليًّا، فإن الله يغضب لغضبه..!" فأطلقت أخاها فداعبه رسول الله ﷺ قائلاً: "يا علي غلبتك امرأة!..".

ولقد بلغ هذا التحرير الإسلامي بأم هانئ الذروة أن خطبها رسول الله ﷺ لنفسه زوجًا وأما للمؤمنين بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك الذي فرّ بشركه إلى نجران، فاعتذرت عن خطبة الرسول -بأدب جم وحكمة بالغة- وقالت: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من سمعي وبصري، وحقُّ الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلتُ على زوجي أن أُضيّع بعض شأني وولدي، وإن أقبلتُ على ولدي أن أضيع حق الزوج. فقبل المصطفى ﷺ اعتذارها واحترم رغبتها في التفرغ لأولادها.. صنع ذلك وهو القائد المنتصر في لحظات الفتح الأكبر والانتصار الأعظم التي يستبيح في مثلها الفاتحون كل الحدود والسدود. غالب الرسول المنتصر عواطفه الإنسانية، واحترم حرية أم هانئ، وأثنى عليها وعلى ما تمثل من منظومة للقيم.

• وعائشة بنت أبي بكر الصديق -زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين- رضي الله عنهما، ثمرة من ثمرات هذا التحرير الإسلامي للنساء؛ كانت الزوجة

الرقيقة الحبيبة؛ وراوية الأحاديث وحافظة السنة؛ والفقيهة التي تراجع القرّاء والرواة والفقهاء والمجتهدين؛ والمشيرة في الشؤون العامة؛ والمتذوقة للفنون التي تعرضها فرقة فنية -من الأحباش- في مسجد النبوة؛ والممارسة لرياضة الجري مع زوجها ﷺ أثناء السفر إلى الغزو والجهاد.

• وحفصة بنت عمر بن الخطاب -زوج الرسول وأم المؤمنين- رضي الله عنهما، كانت من ثمرات هذا التحرير الإسلامي للمرأة؛ سبقت إلى الإسلام بمكة وهاجرت بدينها إلى المدينة المنورة؛ وكانت شاعرة وخطيبة فصيحة وراوية للحديث. وائتمنتها الأمة على حفظ القرآن عندما جمع المسلمون صحائفه على عهد أبي بكر الصديق فحفظته حتى أسلمته إلى الخليفة عثمان بن عفان، فنُسخت منه المصاحف التي وُزّعت على الأمصار؛ وشاركت بالرأي في تدبير شورى الأمة بعد استشهاد أبيها الفاروق؛ ورثَتْه نثرًا وشعرًا وخطبت في الناس بمناقب أبي بكر وعمر؛ وتحدثت عن سنة الإسلام في الاختيار الشوري للخلفاء والبيعة التعاقدية بين الأمة وبينهم.

• ونسيبة بنت كعب الأنصارية -أم عمارة- رضي الله عنها، كانت ثمرة ناضجة متألقة من ثمرات هذا التحرير شاركت في بيعة العقبة الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية الأولى، فمارست في ظلال الإسلام وتحريره للمرأة قمة الولاية السياسية قبل أربعة عشر قرنًا؛ وشاركت في بيعة الرضوان -تحت الشجرة- عام الحديبية (٦هـ) "على الحرب والقتال" عندما شاع أن قريشًا قتلت مندوب المسلمين إليهم، عثمان بن عفان. وكانت أم عمارة ممن أوفى بما عاهد عليه الله.. ففي يوم أحد كانت ضمن أقل من عشرة هم الذين صمدوا لجيش الشرك فحموا رسول الله ﷺ من القتل.. ويومئذ رآها الرسول وقد كسرت سنه وسالت دماؤه، وهي

مشمرة قد ربطت ثوبها على وسطها تقاتل دونه وتتصدى لابن قميئة الذي اندفع نحو الرسول ﷺ قائلاً: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا...! رآها الرسول وهي تتلقى في كتفها الطعنة التي أراد ابن قميئة توجيهها إلى الرسول.. وكانت أمها معها تعصب لها جراحها. وكان معها كذلك في هذه الملحمة ابنها الذي نزف فعصبت نزيفه ثم استنهضته للقتال. وعندما جُرحت جرحها الغائر في كتفها نادى الرسول على ابنها: "أمك، أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت". ثم نادى على أحد الفارين كي يعطيها ترسه لتترس به.. وقال لها في إعجاب: "من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟!.. لمقام نسيبة بنت كعب يوم أحد خير من فلان وفلان.. ما ألتفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني. "أما هي، التي غادرت أرض المعركة يومئذ وفي جسدها ثلاثة عشر جرحًا فلقد قالت لرسول الله ﷺ: ادع الله أن نرافقك في الجنة... فقال ﷺ: "اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة"، فقالت: ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا.

• وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها كانت هي الأخرى واحدة من الكواكب اللاتي حررهن الإسلام فأضأن في سماء تحرير المرأة المسلمة. شاركت مع أم عمارة في عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى ببيعة العقبة؛ وشهدت يوم الفتح الأعظم (فتح مكة)، وقاتلت يوم اليرموك في فتوحات الشام، وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها؛ وكانت من ذوات الرأي والعقل والحكمة والدين، خطيبة فصيحة تهز أعواد المنابر إذا خطبت، وتقوم على تنظيم النساء المؤمنات، وتتزعم المطالبة بما لهن من حقوق، حتى لقد سميت في كتب السنة والسيرة بـ"وافدة النساء"، أي رسولة وزعيمة النساء في المطالبة بحقوقهن لأنها

ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد متحدثة باسم نساء المسلمين، فقالت: "أنا وافدة من خلفي من النساء يقلن بقولي وهنّ على مثل رأيي. إن الله قد بعثك للرجال والنساء. ولقد غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، تعلمنا فيه". فوعدهن رسول الله ﷺ يومًا، لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن.. وروت عن رسول الله ﷺ أكثر من ثمانين حديثًا.

تلك مجرد إشارات لأمثلة من النماذج التي جسّدت نوعية التحرير الذي أنجزه الإسلام للمرأة منذ فجر البعثة النبوية وإشراق شمس حضارة الإسلام. وإذا كانت هذه النماذج شاهدةً شهادةَ صدقٍ على نوعية التحرير ونموذجه، فإن الآفاق الواسعة التي بلغتها موجات هذا التحرير تشهد على عموم النعمة التي تمثلت فيه.

نسبة أعلام النساء في حضارة الإسلام

يوم انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان تعداد الأمة التي دخلت الدين الجديد وانخرطت في رعية الدولة الوليدة (١٢٤,٠٠٠) من المسلمين والمسلمات. وعندما رصد علماء التراجم والطبقات أسماء الأعلام والصفوة والنخبة التي تربّت في مدرسة النبوة وتميز عطاؤها في مختلف ميادين العطاء، رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف من صفوة الصفوة، فكان من بينهم أكثر من ألف من النساء. أي إن التحرير الإسلامي للمرأة قد دفع إلى مراكز الريادة والقيادة أكثر من واحدة من بين كل ثمانية من الصفوة والنخبة إبان التحرير الإسلامي في أقل من ربع قرن من الزمان، وهي أعلى نسبة للريادات النسائية في أي ثورة من ثورات التحرير أو نهضة من النهضات.

وإذا كانت رياح الجاهلية قد أعادت بعض التقاليد والعادات التي سبقت وسادت مجتمعات ما قبل الإسلام، فإن هذه التقاليد الراكدة لم تستطع غلبة إنجازات التحرير الإسلامي للمرأة رغم مغالبتها لهذه الإنجازات، فظلّت روح هذا التحرير وثمراته ملحوظة حتى في عصور التراجع الحضاري الذي أصاب عالم الإسلام. فظلت حياتنا الاجتماعية الإسلامية زاخرة بنماذج النساء المُحدّثات والفقيهات والشاعرات والأديبات اللائي بلغ شأوهن في العلم الحد الذي تتلمذ عليهن وأخذ "الإجازة" العلمية منهن عدد من كبار أئمة الفقهاء والحفاظ والمحدّثين والمجددين.

وعندما رصد عالِم التاريخ والتراجم والطبقات "عمر رضا كحّالة" أعلامَ النساء اللائي تفوّقن وبرزن وتقدمن صفوف الصفوة في تاريخنا الحضاري، إذا به يترجم لثلاثة آلاف من أعلام النساء في المحيط العربي وحده، وهو محيط لا يمثّل إلا خُمس أمة الإسلام.

صحيح أن نسبة الصفوة وأعلام النساء في تاريخنا الحضاري كان يجب أن تكون أضعاف أضعاف هذا العدد، وذلك قياسًا على حجم وتعداد صفوة وأعلام النساء في عهد النبوّة. لكن يظل هذا التعداد شهادة صدق للنموذج الإسلامي في تحرير النساء، ووِسامًا على صدر حضارة الإسلام تباهي به كلّ الحضارات. فلقد استعصى هذا النموذج على الهزيمة أمام العادات والتقاليد الراكدة التي عادت فسادت في حقبة تراجعه الحضاري، فظل فاعلاً على امتداد تاريخ الإسلام، ثم عاد لتتألق معالمه المتميزة في اجتهادات مدرسة الإحياء الإسلامي الحديث والمعاصر.

رسالة الإسلام رسالة إحيائية

إن الحضارة الإسلامية التي جسّدت الإحياء الإسلامي في مختلف ميادين الإبداع الحضاري، لأن الإسلام هو الإحياء في مختلف هذه الميادين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤).. إن هذه الحضارة الإسلامية قد أفرزت أعلام العلماء -في مختلف ميادين العلم بما في ذلك الفلك والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والرياضيات والطب والصيدلة... إلخ- قبل أن يمر قرن من الزمان على إشراق شمس الإسلام، ناهيك عن العلوم الشرعية والإنسانية والاجتماعية والآداب والفنون. بينما الحضارة الغربية في أوروبا قد ظلّت ستة عشر قرنًا قبل أن تشهد عالِمًا واحدًا في الفلك.

وإذا كان الإيمان الإسلامي، وفقه الدعوة الإسلامية، وشورى هذه الدعوة قد بدأت جميعها بامرأة وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.. وإذا كانت علوم الإسلام قد عرفت الريادات من النساء منذ فجر الدعوة وعلى امتداد تاريخها الطويل.. فإن الحضارة الغربية لم تعرف عالمة في النصرانية ولاهوتها. أما هذا الذي سمّوه في النهضة الأوروبية تحرير المرأة فلقد جاء هو الآخر -كتحرير العلماء- على أنقاض سلطان الدين والكنيسة واللاهوت. ولذلك جاء رد فعل لاديني يحرر المرأة من الدين بدلاً من أن يحررها بالدين.

لذلك كانت رسالة العقل المسلم هي حماية المجتمع المسلم من الوقوع في مستنقع التقليد، تقليد الآخر الغربي. وسواء أكان التقليد للنموذج الغربي المغالي في مناقضة الفطرة والقيم، أم كان تقليدًا للعادات

والتقاليد الاجتماعية البائدة، فإنه مرذول. وفي النموذج الإسلامي الوسطي لتحرير المرأة بالإسلام النموذج المثالي الذي يحرر المرأة مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، تلك التي فطر الله الناس عليها، من الذكور والإناث جميعًا. فهو تحرير تَسعد به المرأة بدلاً من أن تشقى بالنموذج الغربي للتحرير، أو تظل حبيسة العادات والتقاليد الراكدة التي يحملها البعض زورًا وبهتانًا على حقيقة الإسلام.

حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب

- الحرب الدينية المقدسة
- حقيقة الجهاد الإسلامي
- حقيقة القتال في الإسلام
- حقيقة الإرهاب

إن الجهاد الإسلامي الذي هو فريضة إسلامية أعم من القتال الذي شرعه الإسلام. فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالاً، إذ القتال هو الجانب العنيف من الجهاد وليس كل الجهاد.

حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب

هناك خلط كبير وشديد بين مضامين هذه المصطلحات الثلاثة: الجهاد... والقتال... والإرهاب.

وهذا الخلط هو أشد ما يكون في هذه الحرب السياسية والفكرية والدينية والإعلامية الكبرى التي تشنها دوائر غربية متنفذة ضد الإسلام وأمته وحضارته وعالمه، ليس فقط منذ "قارعة" ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م التي وقعت بأمريكا، وإنما قبل هذه القارعة بعقود وربما بقرون. لكن هذه القارعة قد تصاعدت بهذه الحملة، ومن ثم بهذا الخلط بين مفاهيم هذه المصطلحات تصاعدًا غير مسبوق في تاريخ علاقات الغرب بالشرق، والغربيين بالشرقيين.

ولأن النظر إلى "الآخر" من خلال "الذات" هو عيب شائع في الدراسات المقارنة بين الديانات والثقافات والحضارات، لأنه يؤدي إلى صب "الآخر" في قوالب "الذات"، وتجاهل -ومن ثم- إلغاء الفروق بين الديانات والثقافات والحضارات، وذلك بدلاً من التمييز بين "الأشباه والنظائر" التي تجمع النماذج الثقافية في موضوع الدراسة، وبين "الفروق" التي تمايز بينها.. كان هذا المنهاج الأحادي الجانب السبب في كثير من الخلط الذي يصيب مضامين العديد من المصطلحات.

صحيح أنه لا مشاحة في استخدام المصطلحات من قِبل أهل الحضارات المختلفة والديانات المتعددة والثقافات المتمايزة، لكن هناك مشاحة أكيدة في المضامين والمفاهيم والمحتويات التي تُفهم لدى كل فريق من ذات المصطلحات. فالمصطلحات بمثابة الأوعية يستخدمها ويتداولها الجميع، لكن محتويات هذه الأوعية (مضامين المصطلحات) تتفاوت وتتغاير وتتمايز بل وقد تتناقض لدى أصحاب الأنساق الفكرية المختلفة رغم وحدة المصطلحات. كذلك الحال مع مصطلحات الجهاد والقتال والإرهاب.

الحرب الدينية المقدسة

باستثناء قطاع محدود من العلماء الغربيين الذين درسوا الإسلام وحضارته وتاريخه وفق موضوعية الدراسات المقارنة، والذين تحررت ضمائرهم من قيود المقاصد "الإمبريالية" الغربية، فإن الكثيرين من الذين قاموا بدراسة الحضارة الإسلامية وتاريخ المسلمين -سواء بسوء فهم أو سوء نية- قد وقعوا في خطإ النظر إلى "الذات الإسلامية" من خلال منظار "المعايير" التي حكمت مسيرة الحضارة الغربية، والكهانة الكنسية للنصرانية الغربية، والتاريخ الحضاري الغربي، وما شهده من صراعات.

فإذا ذُكرت الخلافة الإسلامية -وهي دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية- قفز إلى مخيلتهم كهانة الدولة الكنسية الأوربية التي حكمت بالحق الإلهي والتفويض السماوي. وإذا ذُكر الحق في المواطنة، لم يتصوروه إلا قائمًا على أنقاض الدين وشريعته وفي ظلال العلمانية واللادينية. وإذا ذُكر الدين، لم يتصوروه إلا علاقة فردية بين الإنسان

وخالقه تقف عند خلاص الروح ومملكة السماء، لا علاقة لها بهذا العالم، لأنها تدع ما لقيصر لقيصر، مكتفية بما لله لله.

وانطلاقًا من النظر إلى "الآخر الإسلامي" من خلال منظار "الذات الغربية" حسب هؤلاء الغربيون -ومعهم مثقفونا المتغربون- الجهاد الإسلامي "حربًا دينية مقدسة" ضد أصحاب الديانات الأخرى تكون معايير البراء والعداء والصراع فيها هي الاختلافات في المعتقدات.

وانطلاقًا من هذا النموذج "الحضاري والتاريخي"، ومن خلال هذا المنظار الغربي نظر كثير من المستشرقين الغربيين إلى الجهاد الذي تحدث عنه القرآن الكريم والذي جعلته السنة النبوية ذروة سنام الإسلام.

حقيقة الجهاد الإسلامي

إن الجهاد الإسلامي ليس حربًا دينية مقدسة، لأن الإسلام ينكر ويستنكر أي حرب دينية. فالإيمان الإسلامي تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، وهو سر بين المؤمن وبين خالقه لا يتأتى إلا بالفهم والعلم والإقناع والاقتناع، ولا يمكن أن يكون ثمرة لأي لون من ألوان الإكراه فضلاً عن أن يكون هذا الإكراه عنفًا قتاليا. ولذلك قرر القرآن الكريم القاعدة المحكمة والمحاكمة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦) والتي لا تعني فقط "النهي" عن الإكراه في الدين، وإنما تعني أيضًا "نفي" أن يكون هناك دين أو تدين عن طريق الإكراه. إذ الإكراه يثمر "نفاقًا" وهو أخطر من "الشرك" الصراح و "الكفر" البواح، ولا يمكن أن يثمر "إيمانًا" بحال من الأحوال. ولذلك شاعت في القرآن الكريم الآيات التي تقول للمخالفين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦)، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩) والتي

تحدد مهمة الرسالة في الاعتقاد: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ﴾(المائدة:٩٩)، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢١-٢٢).

وإذا كان الخلط بين الجهاد الإسلامي وبين الحرب الدينية المقدسة هو أثر من آثار سوء الفهم للإسلام، أو سوء النية في تصوير الإسلام، فإن هناك خطأ آخر يقع فيه الذين يختزلون الجهاد الإسلامي في القتال الذي تحدث عنه القرآن الكريم ومارسه المسلمون في عصر النبوة وعلى امتداد تاريخ الإسلام.

ذلك أن الجهاد الإسلامي الذي هو فريضة إسلامية أعم من القتال الذي شرعه الإسلام. فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالاً، إذ القتال هو الجانب العنيف من الجهاد وليس كل الجهاد.

إن الجهاد في اصطلاح العربية كما جاء في "لسان العرب" لابن منظور هو: "استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل". فهو لا يقف عند "الفعل" فضلاً عن أن يكون هذا "الفعل" فقط هو "الفعل العنيف" (الحرب) دون سواه.

والجهاد في الاصطلاح القرآني: "هو بذل الوسع في المدافعة والمغالبة" في كل ميادين المدافعة والمغالبة، أي في كل ميادين الحياة، وليس فقط في ميادين القتال. وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن الكريم ورد مرادًا به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها. وسبيل الدعوة الإسلامية هو الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وليس بالقتال والإكراه والحرب الدينية المقدسة. فميادين الجهاد الإسلامي -الأكبر والأعظم والأغلب- هي عوالم الأفكار والحوار.

فبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في ميادين العلم والتعلم والتعليم هو جهاد؛ وبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في عمران

الأرض نهوضًا بأمانة الاستخلاف الإلهي للإنسان هو جهاد؛ بل إن الرفق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد -الطبيعة- هو جهاد؛ وكذلك البر والإحسان إلى الوالدين والأقربين وأولي الأرحام هو جهاد. كما أن الخشية لله ومراقبته وتقواه والتبتل إليه هي قمة من قمم الجهاد الذي فرضه الإسلام؛ والكلمة الصادقة جهاد.

بل لقد جعلت السنة النبوية -وهي البيان النبوي للبلاغ القرآني- من أفعال القلوب -وليس فقط الأيدي والألسنة- ميدانا من ميادين الجهاد الإسلامي: "فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جهادهم بقلبه فهو مؤمن" (رواه مسلم).

ومثل ذلك حراسة الوطن والمرابطة على ثغور دار الإسلام -كل الثغور- هي جهاد يكون أصحابها أول من يدخل الجنة من خلق الله.

كذلك جعلت السنة النبوية الحج إلى بيت الله الحرام -وفيه التجرد من الدنيا وقوّتها، بل وزينتها- والتعايش السلمي حتى مع الهوان، وكل أنواع الأحياء والنباتات... جعلت السنة النبوية هذا الحج ميدانًا من ميادين الجهاد الإسلامي.

تلك هي حقيقة الجهاد الإسلامي الذي هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة في أي ميدان من ميادين الجهاد على امتداد هذه الميادين واتساعها وتنوعها، وليس فقط هو القتال، فضلاً عن أن يكون الحرب الدينية المقدسة.

ولهذه الحقيقة كان الجهاد الإسلامي فريضة لازمة على كل مسلم ومسلمة، لأنه مستطاع لكل المكلفين وفق القدرات التي امتلكها ويمتلكها هؤلاء المكلفون، وفي أي ميدان يستطيع المكلف أن يبذل جهده فيه بسائر ميادين العبادات والمعاملات؛ بينما كان القتال الذي هو شعبة من

شعب الجهاد مشروطًا بشروط، وله ميادين محددة، ضبطها القرآن الكريم في الآيات التي تحدثت عن القتال.

تلك هي حقيقة الجهاد الذي فرضه الله وجعله ذروة سنام الإسلام، والذي جاهده المسلمون -ولا يزالون- على امتداد تاريخ الإسلام، والذي يكون جهادًا كبيرًا عندما يكون فقهًا ووعيًا وحوارًا بالحكمة والموعظة الحسنة انطلاقًا من القرآن الكريم: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٢).

حقيقة القتال في الإسلام

وإذا كان الجهاد في الإسلام أعم من القتال، فإن القتال الذي هو الجهاد العنيف، والذي هو شعبة واحدة من الشعب السلمية التي لا تُحصى للجهاد، متميزة ثمرته -وهي القتل- عن الموت الطبيعي. فالموت: هو فوْتُ الحياة، بينما القتل: هو إزالة الروح وإزهاقها، وفوت الحياة بفعل فاعل من الخارج يتولى هذا الإزهاق.

وليس هناك شك -بل ولا غرابة- في أن نجد في الإسلام تشريعًا مضبوطًا يجوّز القتال أو يوجبه في بعض الحالات، ذلك أن الإسلام دين ودولة، وأمة ووطن، واجتماع ونظام، فالدين في الإسلام لا بد لإقامته من وطن يقام فيه، لأن هذا الدين الإسلامي ليس مجرد تكاليف فردية، يستطيع المكلف بها أن يقيمها بمعزل عن الناس، أو بإدارة الظهر للناس، وإنما فيه -إلى جانب التكاليف الفردية- تكاليف اجتماعية لا تؤدى إلا في أمة، وجماعة، ونظام، ومؤسسات، وسلطة، واجتماع؛ أي لا بد له من وطن ودولة. وهذه التكاليف الاجتماعية -والكفائية- هي آكد وأهم من التكاليف الفردية، لأن الإثم في التخلف عن التكليف الفردي يقع

على الفرد فقط، بينما إثم التخلف عن التكليف الجماعي والاجتماعي -الكفائي- يقع على الأمة جمعاء. بل إن أغلب التكاليف الفردية في الإسلام تُؤدّى وتقام في جماعة، وثوابها في الجماعة أضعاف أضعاف إقامتها خارج الجماعة.

ولهذه الحقيقة -أيضًا- رفع الإسلام قيمة الحفاظ على حرية الوطن واستقلاله وسيادته، وحق المواطن -بل واجبه- في أن يعيش حرًا في وطن حر... رفع هذه القيمة إلى مقام الحياة.

ولأن هذا هو مقام الوطن وضرورته لإقامة دين الإسلام، كان الجهاد القتالي واردًا، وأحيانًا واجبًا، للحفاظ على الوعاء -الوطن- الذي بدونه لا يُقام كامل الإسلام.

فلا بد لإقامة الإسلام من وطن، الأمر الذي يجعل القتال لحماية حرية هذا الوطن -التي هي حرية مواطنيه- واردًا في شريعة الإسلام. فالحفاظ على الدين هو ذروة سنام مقاصد الشريعة الإسلامية. والحفاظ على حرية الوطن الإسلامي هو الشرط لإقامة الدين والقيام بأمانة العمران التي هي المهمة العظمى من وراء استخلاف الله لجنس الإنسان ولذلك وقف الإسلام بالقتال -إذنًا وأمرًا وتحريضًا- فقط عند:

١- الحفاظ على الدين، وحرية الدعوة إليه، وتحرير ضمائر المؤمنين به من الفتنة والإكراه.

٢- الحفاظ على الوطن، وصيانة حريته وحرية أهله من العدوان.

فالقتال في الإسلام هو الاستثناء الذي لا يجوز اللجوء إليه إلا لمدافعة الذين يفتنون المسلمين في دينهم، أو يخرجونهم من ديارهم. ولقد كان منهاج الدعوة الإسلامية التجسيد لهذا المنهاج.

ففي البداية وبعد ما تعرض له المسلمون من أذى في عقيدتهم، وفتنة عن دينهم، واضطهاد تصاعد حتى اقتلعهم من وطنهم (مكة)، وجعلهم يهاجرون إلى يثربَ (المدينة)، بعد هجرة العديدين منهم إلى الحبشة؛ أذن الله -مجرد إذن- للمؤمنين في القتال ولقد كان الإخراج من الديار،[1] والفتنة في الدين، الأسباب التي ذكرها القرآن الكريم في كل الآيات التي شرعت لهذا القتال.

وعندما تطور الحال من "الإذن" في القتال إلى "الأمر" به، جاء القرآن الكريم ليضع الإخراج من الديار سببًا لهذا الأمر. فهو قتال دفاعي ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، وفتنوهم في دينهم لتحرير الوطن الذي سلبه المشركون من المسلمين ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(البقرة:١٩١).

ذلك لأن منهاج الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى الله وإلى دينه ليس القتال، وإنما هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

بل قد تميز الإسلام في هذا الميدان برفضه فلسفة "الصراع"، لأنه يؤدي إلى أن يصرع القوي الضعيف فيزيله وينهي التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، التي هي سنة من سنن الله في سائر عوالم المخلوقات. رفض الإسلام فلسفة "الصراع"، وأحل محلها فلسفة "التدافع" الذي هو حراك يعدّل المواقف، ويعيد التوازن، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار

---

(١) ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٣٩-٤٠)

والتفاعل بين مختلف الفرقاء.

إن الإسلام لا يريد "الصراع" الذي ينهي "الآخر"، وإنما "التدافع" الذي هو حراك يحل التوازن محل الخلل الذي يصيب علاقات الفرقاء المتمايزين.

كذلك يرفض الإسلام الفلسفات التي اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جبلّة جُبل عليها الإنسان وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه. وفي مواجهة هذه الفلسفات التي ذهبت إلى حد اعتبار الحرب طريقًا من طرق التقدم والتطور(!) يقرر الإسلام أن القتال هو الاستثناء المكروه وليس القاعدة. إنه ضرورة تُقدر بقدرها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦)، وليس هناك "مكتوب" و"مفروض" وصف في القرآن الكريم بأنه "كُرْهٌ" سوى القتال.

ولقد بينت السنة النبوية وأكدت هذه الفلسفة الإسلامية إزاء القتال. فقال رسول الله ﷺ: "لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله" (رواه الدارمي).

وحتى هذا القتال الذي كتب على المسلمين وهو كُره لهم والذي وقف به الإسلام ودولته عند حدود القتال الدفاعي لحماية حرية العقيدة وحرية الدعوة من الفتنة -التي هي أكبر من القتل المادي- ولحماية حرية الوطن الذي بدونه لا يُقام الإسلام... حتى هذا القتال -الاستثناء والضرورة- قد وضع الإسلام ودولته له "دستورًا أخلاقيًا" تجاوز في سموه كل المواثيق الدولية التي تعارف عليها المجتمع الدولي نظريًّا! بعد أربعة عشر قرنًا من ظهور الإسلام، وتطبيق المسلمين لقواعد الدستور الأخلاقي لهذا القتال.

ولقد صاغ أبو بكر الصديق ﵁ وهو رأس الدولة قواعد هذا الدستور

الأخلاقي للقتال والحرب في وثيقة إسلامية عندما أوصى قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان وهو يودعه أميرًا على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين في الشام، فقال في وثيقة الوصايا العشر: "إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبَّسوا أنفسهم لله (الرهبان) فدعهم وما زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم له... وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأةً ولا صبيًّا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا تخرّبن عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تفرقنه، ولا تغْلُل، ولا تجْبُن" (رواه الإمام مالك).

فمعيار الإسلام ودولته في السلم والسلام أو الحرب والقتال ليس "الإيمان" و"الكفر" ولا "الاتفاق" و"الاختلاف"، وإنما هو التعايش السلمي بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين بالفتنة في الدين أو الإخراج من الديار. وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له يقول القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الممتحنة:٨-٩).

ولقد طبق المسلمون هذا المعيار في العلاقات مع المخالفين، فكان اليهود -بدولة المدينة المنورة- جزءًا من الرعية والأمة. ونص دستور هذه الدولة الإسلامية الأولى على أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتنَاصر عليهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر

على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، فيهود أمة مع المؤمنين". وبالنسبة لعموم النصارى قررت المواثيق النبوية في هذه الدولة الإسلامية الأولى: "أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

تلك هي حقيقة النظرة الإسلامية إلى القتال. إنه الاستثناء لا القاعدة، وهو الاستثناء المكروه ولا يجوز اللجوء إليه إلا دفاعًا عن حرية الاعتقاد والضمير وحرية الوطن الذي بدون حريته يستحيل إقامة الاعتقاد الديني على النحو الذي أراده الله في شريعة الإسلام. تلك هي حقيقة القتال في الإسلام وتلك هي مقاصده.

إنه مجرد شعبة من شعب الجهاد، وهو الاستثناء لا القاعدة، والضرورة التي تُقَدَّر بقدرها، وهو الفريضة المكروهة وليس الجِبِلة التي تقود إلى التقدم كما زعمت فلسفات وثقافات خارج نطاق الإسلام.

حقيقة الإرهاب

إن المفهوم الغربي لمصطلح "الإرهاب"، والذي يعني استخدام العنف غير المشروع لترويع الآمنين ولإكراههم على قبول ما لا يريدون، وخصوصًا عندما يكون هذا الإرهاب تمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين، أي إرهاب الدولة الذي يبث الرعب في نفوس المحكومين... إن هذا المفهوم الغربي للإرهاب هو أبعد ما يكون عن مفهوم المصطلح في لغتنا العربية وفي القرآن الكريم الذي هو كتاب العربية الأول وديوان

شريعة الإسلام. بل إن الإسلام يبرئ سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أي منها في الدعوة إلى شريعة أي دين من تلك الديانات. فمنهاج الدعوة إلى اليهودية في شريعة موسى عليه السلام هو "القول اللين"، وليس العنف أو الحرب والقتال والإرهاب: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخْشَى﴾(طه:٤٤).

ولأن موسى عليه السلام لم يقم دولة ولم يقد جيشًا ولم يخض حربًا ولا قتالاً، وإنما ولد ونشأ وبعث في مصر، فلقد ظلت شريعته الحقيقية بريئة من أي إكراه أو عنف أو إرهاب.

وكذلك الحال مع النصرانية التي جاء بها عيسى بن مريم عليه السلام. فهي شريعة الصوفية المسالمة والسلام الصوفي التي بلغت في السلام والمسالمة حدودًا ومثلاً ربما عَزَّتْ على التطبيق في نطاق هذا العالم. ولذلك قال المسيح عليه السلام إن مملكته ليست في هذا العالم. فبراءة النصرانية -ومنهجها في الدعوة- من العنف والإكراه والإرهاب الذي يروّع الآمنين براءة لا تحتاج إلى كثير حديث.

وكذلك الحال مع منهاج الدعوة الإسلامية في الدعوة إلى الله، فلقد جاءت مؤكدة على المنهاج الإلهي في الدعوة إلى الإيمان الديني... منهاج الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، لأن هذا المنهاج هو الوحيد الذي يثمر إيمانًا وتصديقًا قلبيًا يبلغ مرتبة اليقين؛ بينما الإرهاب بمعنى ترويع الآمنين وإكراههم على ما لا يريدون هو سبيل النفاق الذي هو أشد سوء من الشرك الصراح والكفر البواح، وليس سبيل الإيمان بأي حال من الأحوال.

أمَّا أولئك الذين يستندون إلى ورود الإشارة في القرآن الكريم -بسورة

الأنفال- إلى الإرهاب، فإن خطأهم القاتل -هذا إذا حسنت النوايا، وساء الفهم- هو في وقوفهم عند المصطلح مغفلين تميز مفهوم هذا المصطلح في القرآن الكريم واللغة العربية عن مضمونه الغربي الذي شاع ويشيع الآن في دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام. ولو أنهم فهموا سياق الآيات القرآنية التي ورد فيها هذه المصطلح -بسورة الأنفال- ثم جمعوا إلى آيات الأنفال كل الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح ومشتقاته بالقرآن الكريم، ثم فسروا هذه الآيات، وفقهوا هذا المصطلح وفق مضمونه العربي وسياقه القرآني، لمَا تطرق إلى ذهن أحد أن هناك أدنى علاقة بين الإسلام وبين الإرهاب، بمعنى ترويع الآمنين بالعنف والعدوان والإكراه.

إن آيات سورة الأنفال تتحدث عن المشركين الذين يقاتلون المسلمين، بفتنتهم في دينهم، وإخراجهم من ديارهم؛ وتخص بالحديث قومًا من هؤلاء المشركين المقاتلين احترفوا الخيانة للعهود، وأخذ المسلمين على غرة رغم ما بينهم من عهود للسلم والأمان. فتطلب هذه الآيات القرآنية من المسلمين أن يعدوا من العدة، ويتخذوا من القوة ما يرهب ويخيف -أي يردع- هؤلاء الذين مردوا على الخيانة ونقض العهود والغدر والعدوان ما يردعهم عن هذه الخيانة.

يخاطب الله رسوله في هذه الآيات فيقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال:٦٠).

فمعنى الإرهاب هنا هو التخويف لردع الخونة والمخادعين والغادرين كي لا يغدروا بالمسلمين المعاهدين. وهو تخويف يوجب إعداد القوة الرادعة وليس تخويف العدوان والعنف والإكراه، أي أنه التخويف الذي ينفي العنف والإكراه والقتال. فهو كالعقوبة الرادعة؛ إعلانها يمنع ويردع

عن الجريمة، ومن ثم يمنع تطبيقها. ولا علاقة لهذا الإرهاب بهذا المعنى بترويع الآمنين وإكراههم بالعنف والقتال والإكراه الذي هو معنى مصطلح الإرهاب في الفكر الغربي.

إن امتلاك الاتحاد السوفيتي إبان الحرب الباردة في منتصف القرن العشرين للسلاح -الرادع- النووي والهيدروجيني، هو الذي أرهب وردع أمريكا وأخافها من العدوان الذري على السوفيت، فتحقق الأمن والأمان للعالم من هذه الكارثة النووية.

ويشهد على هذه الحقيقة المفاهيمية مع السياق الذي وردت به آيات سورة الأنفال معنى مصطلح الإرهاب في العربية لغة القرآن الكريم.

ونحن عندما نعود إلى "الراغب الأصفهاني" في كتاب "المفردات في غريب القرآن" نجد أن معنى الإرهاب في القرآن ولغته العربية هو على الضد من العنف الذي يروّع الآمنين ويرعبهم. فهو من "الرهبة" بمعنى المخافة مع "تحرّز واضطراب". وليس هناك عاقل يمكن أن يفسر المخافة والرهبة والخشية بالعنف الذي يروّع الآمنين ويرعبهم. وتشهد على ذلك كل الآيات القرآنية التي وردت فيها إشارات إلى هذا المصطلح وتصريفاته اللغوية.

فالرهبان هم الذين يبالغون في الخوف من الله وفي خشيته، والرهبانية هي المبالغة في الخشية من الله، وليس في أي من مضامين هذه المصطلحات القرآنية -يرهبون، فارهبون، تُرهبون، استرهبوهم، الرهْب، الرهبة، الرهبان، الرهبانية- ما يشير من قريب أو بعيد للمعنى الغربي للإرهاب، بمعنى العنف الذي يروّع الأبرياء والآمنين ويرعبهم.

إن إخراج الناس من ديارهم وأوطانهم وتحويلهم إلى لاجئين، هو

عنف وإرهاب وترويع للأبرياء والآمنين. وإن نظرة على تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق، لتضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على قرون الغزو والعنف والقهر الثقافي والسياسي والديني والحضاري الذي مارسه الغرب ضد الشرق أغلب قرون ذلك التاريخ.

تلك هي حقيقة الجهاد والقتال والإرهاب في مصطلح العربية والقرآن والإسلام.

المصادر:

(١) مجمع اللغة العربية، (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة، سنة (١٣٩٠هـ-١٩٧٠م).

(٢) د. محمد حميد الله الحيدر آبادي، محقق (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة)، ص:١٦-٢١، طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٦م.

(٣) مجمع اللغة العربية، (معجم العلوم الاجتماعية)، طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٥م.